أثر علم الكلام الإسلامى
فى الأدب

بقلم محمد موسى عفيفى
المدرس الأول بالمدرسة الابراهيمية الثانوية

مقدمات :

— ١ —

درج الناس منذ فطرهم الله تعالى على تأثر ماشُرع لهم من شرائع يناقشون أصولها ، ويعللون أحكامها : يتدبرون معانيها ، ويتفهمون مراميها ، ويؤولون متشابهها ، ويفسرون عويصها ؛ ويستخلصون لأنفسهم من هذه الأصول فروعا ليست سواء عندهم جميعا ، لأنهم فيما يستنبطون يستند بعضهم إلى ما هدتهم إليه عقولهم من الأخذ بظاهر نصوص الأصل ، وبعضهم لا يقنعون بذلك ويأبون إلا أن يمعنوا فى التأويل والتخريج والتوجيه لمجرد شبهة عرضت لهم ، ولذلك اختلف أرباب الأديان التى سبقت الإسلام : كاليهود والنصارى وغيرهم فى تفهم الأصول وما تلد من فروع ، وجادل بعضهم بعضا جدالا عنيفا جر إلى افتراقهم فرقا عدة ، ولم يكن حظ الإسلام - الذى جاء بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، وأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية : كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها ، وعلى أنه لا يشبهه أحد أو شىء من خلقه ، وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم ، وأنهم إليه راجعون « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد » - لم يكن حظ الإسلام بأحسن من حظ الأديان التى سبقته . فافترق المسلمون ، واختلفوا فى تفهم أصول دينهم ، أو العقائد التى قام عليها علم الكلام ، وفيما يلى بيان العوامل التى كانت سبباً فى هذا الاختلاف

— ٢ —

خفقت بنود الإسلام على عُظم ما كان معروفاً من الأرض : كفارس والعراق وسورية وفلسطين ومصر والمغرب والأندلس وغيرها من ممالك الأرض كجذر البحر المتوسط ، ومن سكان هذه الأقاليم النصارى ، واليهود ، والصابئة ، والمجوس ، وهم مختلفون جميعاً فى عقائدهم ، فسرت تعاليمهم بحكم المخالطة والمجاورة إلى نفوس المسلمين ، التى تأثرت بها إلى حد ما ؛ ودخل كثير من هؤلاء فى الإسلام ؛ لا لأنه أبيض الوجه ، ولا لأنه أكمل للإنسان سعادته بما منحه من استقلال الإرادة ، واستقلال الفكر والرأى ، وقد كان حرمهما زمناً طويلا ؛ بل ليكيدوا له كيداً ، انتقاما لدولهم الدائلة ، وأديانهم الزائلة ، فدسوا فيه من الأساطير والأحاديث المفتراة . ومما أرادوا به تشويهه ، فما لعله يفتح السبل لأقوالهم فتنفذ إلى العقول .

ووردت فى القرآن الكريم والسنة الشريفة آى وأحاديث ، يوهم ظاهرها غير ما فسرها به السلف الصالح ، فأخذ ذوو الأغراض والأهواء يتمسكون بظاهرها ، ويجادلون فيها ليذكوا نار الفتنة التى يعملون لها جاهدين ، لعلهم يطفئون النار التى تأجج فى صدورهم ، وتأكل قلوبهم .

وانتشر القصاص فى المدن الإسلامية بالمجالس والمساجد منذ فجر الإسلام - ومنهم من كان يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً أو صابئياً - وتناولوا الكلام فى بعض حوادث وقتهم ، ومعرفة حكمها من الدين ، ولم يتورع أكثرهم عن ذكر الخرافات ، وسوق الأساطير التى تكسب قصصهم روعة وقبولا ، ففتح بذلك باب دخل منه على الحديث الشريف كذب ، واسودّ به وجه التاريخ ؛ لما اندس فيه من حوادث زائفة ، كان لها أثر سيىء فى عقيدة المسلمين .

وشيء آخر يضاف إلى ما سبق ، هو الخوض فى الغيبيات التى كانت وما زالت مزالق للباحثين ، مع أن العقل الإنسانى لن يستطيع أن يصل إلى كنهها بالغاً ما بلغ من الحصافة والنشاط .

هذه العوامل - التى ذكرنا وغيرها مما لم نذكر اختصارا - هيأت العقول للجدل

والكلام فى المسائل الدينية والسياسية ، فثارت ريح الخلاف لاختلاف وجهات النظر وتباين الأغراض والمرامى ، وتشعب الآراء فى الحوادث إبان الصدر الأول ، وتمخضت عن نشوء فرق إسلامية مختلفة ، خاضت ميادين الكلام ، وأذكت ناره : ففرقة إسلامية تجادل أخرى إسلامية ، وفرق إسلامية تجادل الدهريين واليهود والنصارى ، وغيرهم ممن قذفوا الإسلام بشبههم ، وغضوا من جلاله كيدا ، وما زالت هذه الفرق تنمو ويشتق بعضها من بعض على الأيام للخلاف الذى يقع بينها حتى كثرت ، وأغرق بعضها إغراقا ضل به سواء السبيل .

— ٣ —

بعض الفرق الإسلامية المشهورة :

ومن أشهر الفرق الإسلامية القدرية الذين يقولون : « لاقدر والأمر أنف » ، وبجمل ما يذهبون اليه :

أولا : إنكار قدر الله تعالى الذى صرحت به الآى الكريمة ، وجاءت به الأحاديث الشريفة ، كقوله (صلى الله عليه وسلم) : « لا يؤمن أحدكم حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه » وقوله (صلى الله عليه وسلم) : « إن الله تعالى يبعث ملكا بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح فيه ، فيكتب أجله ورزقه وعمله ، وشقى أو سعيد »[1]

ثانيا : إن الله تعالى غير خالق لأكساب الناس ، وليس له (عز وجل) فيها صنع ولا تقدير ، وأن الإنسان حر الإرادة ، وله قدرة على كسب أفعاله ، وهو على خيرها يثاب ، وعلى شرها يعاقب .

ثالثاً : نفى صفات الله : من العلم ، والقدرة ، والإرادة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، التى وردت بها الآى الكريمة ، مستندين فى ذلك النفى إلى أن اتصافه تعالى بهذه الصفات يدل على شبهه بالمخلوقين ، وهو مستحيل عليه .

رابعاً : خلق القرآن نتيجة لنفى صفة الكلام عنه تعالى .

ويروى مؤرخو الفرق : أن أول من أنكر القدر وقال بما بنى عليه ، معبد

(١) الأيمان لابن تيمية ص ١٥٦

ابن خالد الجهنى (١) . أخذه عن رجل كان نصرانياً (٢) أو مجوسياً (٣) وأسلم يقال له سيسويه (٤) كان يسكن البصرة ، وعن الرجل عينه أخذ غيلان الدمشقى الذى كان أبوه مولى لعثمان بن عفان ، وعن هذين - وكانا خطيبين مُفَوَّهين - أخذ الناس ، فسال سيل القول بالقدر على المعنى السابق فى العراق والشام . فأما معبد فقتله الحجاج صبراً أواخر سنة ٨٣ هـ لخروجه مع ابن الأشعث (٥) وأما غيلان فقتله هشام بن عبد الملك فى خلافته ١٠٥ هـ - ١٢٥ هـ لأسرافه فى القول بالقدر ، وتسميعه بحكومة بنى أمية ، ولم يكن حظ أولياء معبد وغيلان بأحسن من حظهما ، ولا سيما فى خلافة هشام .

الجبرية أو الجهمية :

ومن الفرق الإسلامية التى كانت من مولود العوامل السابقة : الجبرية أو الجهمية ، أو المعطلة ، أو القدرية أيضاً ، ومجمل ماذهب إليه هؤلاء الجبريون :

أولا : إن الإنسان لا قدرة له على شىء ولا اختيار ولا كسب له ، وإنما هو مجبور على أفعال قدرها الله تعالى عليه ولا بد أن تصدر منه .

ثانياً : إن الله تعالى يخلق الأفعال فى الإنسان خلقاً فلا تنسب إليه إلا مجازاً ،

---

(١) المعارف لابن قتيبة ص ١٩٥ ، وشرح العيون لابن نباتة ص ٥١ هامش الغيث المسجم

(٢) شرح العيون الصفحة عينها ، والإيمان لابن تيمية ص ١٥٦

(٣ ، ٤) الإيمان لابن تيمية ص ١٥٦

(٥) عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندى ندبه الحجاج لقتال رتبيل ، ملك الترك ، فلما غزا سنة وغنم مغانم كثيرة رأى أن يتدرج فى الفتح لئلا يهلك جنوده ، فلم يصادف ما رأى هوى فى نفس الحجاج ، وأمره بالإمعان فى بلاد العدو ، فعرض عبد الرحمن الأمر على معاونيه وجنوده ، فرأوا رأيه ، وخلعوا طاعة الحجاج وعبد الملك بن مروان ، ثم زحف ابن الأشعث بجنوده نحو العراق لقتال الحجاج ، فلما التقى الجمعان تغلب الحجاج على خصمه وهزمه وجنوده « جمهرة خطب العرب للاستاذ أحمد زكى صفوت »

كما تنسب إلى الجماد ، فكما يقال : طلعت الشمس مثلا بدون أن تكون فاعلة للطلوع، يقال : سافر فلان أو حارب ، بدون أن يكون فاعلا حقيقياً للسفر أو الحرب.

ثالثاً : نفوا صفات الله تعالى التى وردت بها الآى الكريمة ، كما فعل القدرية ، فراراً من تشبيهه تعالى بالمخلوق ، وقالوا : يجب ألا يؤخذ ماورد من الآيات على ظاهره بل لا بد من تأويله .

وزعيم هذه الطائفة وأسبق الناس قولا بالجبر : جهم بن صفوان الخراسانى ، مولى بنى راسب ، وكان خطيباً خلاباً ذا بيان وفصاحة ، ظهرت بدعته فى ترمذ (١) وتبعه خلق كثير ، ثم قتله سالم بن أحوز المازنى بمرو (٢) سنة ١٢٨ هـ لخروجه مع الحارث بن سريج على نصر بن سيار والى خراسان من قبل مروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية فى المشرق (٣)

— ٤ —

متى همس الناس بالقدر ؟

تكلم الناس فى القدر فى حياة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما بينا آنفاً من دخول كثيرين من أهل الأديان والنحل فى الاسلام ، وتسرب طائفة من آرائهم إلى المسلمين ، ولما ورد فى القرآن الكريم من آى يوهم بعضها أن الانسان مجبور على أعماله لاحرية له ولا إرادة ، كقوله تعالى : « والله خلقكم وما تعملون » ، وقوله تعالى : « قل كل من عند الله » ، وقوله عز وجل : « ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون » ، ولما

(١) مدينة على نهر جيحون من الجانب الشرقى ، وهى بكسر التاء والميم ، وبفتح التاء وكسر الميم ، وبضم التاء والميم ، وفيها لغات أخرى (معجم البلدان لياقوت ، والقاموس المحيط)

(٢) قاعدة بلاد خراسان قديما على نهر مرغاب ، فتحها الأحنف بن قيس فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وفيها بويع بالخلافة المأمون العباسى سنة ١٩٨ هـ

(٣) أخذ جهم القول الذى نسب إليه عن الجعد بن درهم الآتى ذكره .

ورد من آى أخرى يوهم ظاهرها أن للإنسان اختياراً وكسباً كقوله تعالى: «إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً»، وقوله تعالى: «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»، ولذلك عرض (صلى الله عليه وسلم) للقدر وقال: «إذا ذكر القدر فأمسكوا»، وقال: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر ...» إلى آخر الحديث السابق ولم ينكر القدر فى زمانه (صلى الله عليه وسلم) منكر، وإنما تنطع الناس فى فهمه وحملوا ما يرتكبون من آثام عليه قائلين قدر الله وقضاؤه ساقانا، ولذلك قال عليه السلام: «القدرية مجوس هذه الأمة»، وعنى بذلك الذين يتعللون بالقدر ويحملون ما يقارفون من موبق عليه، وكذلك لم ينكر القدر فى عهد الخلفاء الراشدين منكر [1] وإنما تعلل الناس به وأكثروا من الكلام فيه، فدافعهم عمر بصرامته. وعلى ببلاغته، ورد عليهم جمع من الصحابة: كعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، والحسن بن على، وواثلة بن الأسقع [2]. وما زالت نار الجدل تستعر بين بقية الصحابة والتابعين. وبين هؤلاء وأشباههم، إلى أن ظهر منكرو القدر والقائلون بالجبر الذين ألمعنا اليهم سابقا فى خلافة بنى أمية، فناظرهم بعض الخلفاء والعلماء: كعمر بن عبد العزيز، والأوزاعى [3]، وميمون بن مهران [4] وأخذهم بعض الخلفاء والأمراء بذنوبهم كهشام بن عبد الملك والحجاج وسالم ابن أحوز: وكان قتل معظم من قتل من القدرية والجبرية قتلا سياسيا لأنهم كما شذوا فى المقالات الدينية شذوا فى الآراء السياسية، وبعد هشام كان من خلفاء بنى أمية الضعيف المتهافت على اللذات ومنهم من يرى القدر، كيزيد بن الوليد ابن عبد الملك بن مروان الملقب بالناقص الذى كان من دعاته عمرو بن عبيد الآتى ذكره، ومروان بن محمد الملقب بالجعدى نسبة إلى الجعد بن درهم أستاذه

(١) الإيمان لابن تيمية ص ١٥٦
(٢) المصدر عينه
(٣) سرح العيون ص ٥٢ هامش الغيث المسجم للصفدى
(٤) كان من عمال عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ هـ ثم عمل لهشام ابن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٥ هـ

فى القول بالقدر[1] فتحركت الألسنة بإنكار القدر، وشاع فى الناس حتى أصبح أصلا من أصول مذهب المعتزلة الذى ذر قرنه فى أواخر هذا العصر أيضاً وهضم مذهب القدرية أو كانه، وناهض مذهب الجبرية فى أطراف الأرض ويستنبط مما تقدم نتائج:

الأولى: إن منكرى القدر والقائلين بالجبر أو المعطلة، وهم جهم وأتباعه، ظهروا فى عصر بنى أمية.

الثانية: إن حركتهم نوهضت بالمناظرة ثم بقتل زعمائهم قتلا سببه سوء المقالة وسوء الرأى السياسى، وإن معظم دعاة المذهبين من أولاد الموالى والسبايا، وهذا يؤيد ما ذكرنا آنفا من أن مياهيأ السبيل للقول فى القدر تسرب آراء الداخلين فى الإسلام إلى أذهان المسلمين.

الثالثة: إن سيل القدر سال فى العراق وهى أصله، ثم سال فى الشام وسال قليل منه فى الحجاز[2]، وإن مذهب الجبرية نشأ فى الكوفة بالعراق، ثم جرى

---

(١) فى صفحة ٥٥ من سرح العيون لابن نباتة هامش الغيث المسجم ما يأتى: (أما الجعد فهو ابن درهم مولى بنى الحكم، وكان يسكن دمشق ويعلم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فنسب إليه وقيل مروان الجعدى، والجعد أول من تكلم بخلق القرآن من أئمة محمد بدمشق، ثم طلب فهرب، ثم نزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان القول الذى نسب إليه الجهمية، وقيل إن الجعد أخذ ذلك عن أبان بن سمعان، وأخذه أبان من طالوت بن أعصم اليهودى، وكان طالوت زنديقا يقول بخلق القرآن، وهو أول من صنف فى الزندقة، فأظهر الجعد مصنفاته، فقتله خالد بن عبدالله القسرى يوم الأضحى بالكوفة. قال ابن نباتة: قال خالد بعد أن صلى فى آخر خطبته: (انصرفوا وضحوا بضحايا كم يقبل الله منا ومنكم، فإنى أريد اليوم أن أضحى بالجعد بن درهم فإنه يقول: ما كلم الله موسى تكليما، ولا اتخذ الله إبراهيم خليلا. تعالى الله عما يقول علواً كبيراً، ثم نزل وحز رأسه بالسكين بيده) وكان خالد بن عبد الله عاملا لهشام بن عبد الملك على العراقين بعد ابن هبيرة

(٢) يقول ابن تيمية: «ويقال أول ماحدث — يعنى القدر — فى الحجاز لما احترقت الكعبة، فقال رجل: احترقت بقدر الله تعالى، فقال آخر: لم يقدر الله هذا» الإيمان صفحة ١٥٦ «

نهره فى خراسان بانتقال جهم إليها بعد أن وقفه الجعد على أصول المذهب فى الكوفة .

الرابعة : إن مذهبي القدرية والجبرية التقيا فى القول بنفى صفات الله و فى القول بخلق القرآن .

— ٥ —

المعتزلة :

ومن أعظم الفرق الإسلامية التى ورّثت عقلية المسلمين أثراً واضحا ، المعتزلة أو أهل العدل والتوحيد ، ويسمون القدرية لقولهم فى القدر مقال أصحاب معبد ، والجبرية لأنهم وافقوا أصحاب جهم فى القول بنفى صفات الله تعالى وخلق القرآن ، وبجمل ما ذهب إليه المعتزلة أصول خمسة تعتبر أصل مذهبهم ، ثم استقل كثير من زعمائهم بتعاليم عرف بها وعزيت إليه ، أما التعاليم الأولى فهى :

أولا : التوحيد ، ومعناه إنكار أن يكون لله تعالى صفات قديمة : كالعلم ، والقدرة . والحياة بحجة أنها لو كانت قديمة للزم تعدد القديم . وإنكار أن يكون لله تعالى صفات السمع والبصر والكلام لأنها من عوارض الأجسام .

ثانياً : القول بالمنزلة بين المنزلتين فى أمر مرتكب الكبيرة ؛ أى أنه ليس كافراً ، لأن الشهادة وسائر أعمال الخير فيه ؛ وليس مؤمنا ، لأن الإيمان خصال خير إذا اجتمعت سمى المرء مؤمناً . وهى لم تجتمع لمرتكب الكبيرة بارتكابها ، وإذا لم يكن مؤمناً ولا كافراً فهو بينهما ، أى فاسق مستحق للنار بما فسق .

ثالثاً : العدل أو القول بإنكار القدر ، ومعناه أن الله تعالى لا يحب الفساد ، ولا يريد الشر ، وأن أفعال الإنسان من خير أو شر من كسبه هو لا من صنع الله وتقديره ، ولذلك يعاقب الكاسب على أفعال الشر ، ويثاب على أفعال الخير ، ولما كان الله تعالى لا يريد بالإنسان شراً كان عادلا .

رابعاً : الوعد والوعيد ، ومعناهما أن الله تعالى لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة ، فإذا مات قبلها فهو مخلد فى النار ، وأنه عز وجل يثيب المؤمن إذا فارق الدنيا على طاعته واستقامته

خامسا : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومعناهما أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان على سائر المؤمنين ، كل على حسب استطاعته ولو أدى ذلك إلى سَلّ السيوف من أغمادها . وأشهر رجال هذه الفرقة بل ذوّابتها ، واصل ابن عطاء المولود بمدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) سنة ٨٠ هـ ، وكان يختلف إلى مجلس الحسن البصرى مقرر مذهب الجماعة فى مسجد البصرة ويأخذ عنه ، ثم خالفه فى أمر مرتكب الكبيرة ، وقد كان الخوارج[1] يرون أنه كافر ، والجماعة يرون أنه مؤمن فاسق ، وصرح واصل فى مجلس الحسن بأنه بَيْنَ بين كما تقدم ، فنحاه الحسن عن مجلسه ، أو هو الذى اعتزل مجلس الحسن لما رأى من الكراهة فى وجهه ، واتخذ له مكانا آخر فى المسجد مع فريق من زملائه الآخذين عن الحسن أولا ؛ فسموا المعتزلة لذلك ، ولأسباب أخرى يذكرها مؤرخو الفرق ، ثم أطلق هذا الاسم على كل من سار فى محيط الأصول الخمسة ، وعلى كل من وافقهم فى أصل وبنى عليه على حسب اجتهاده فروعاً أو أضاف إليه أصولا من عنده ، وسميت الفرق المشتقة بأسماء زعمائها ونسبت إليهم[2]

وتبع واصلا فى مذهبه عمرو بن عبيد الذى ألمعنا فى كلامنا آنفاً إلى أنه كان من دعاة يزيد الناقص ، وكان واصل مشهوراً بالفضل والبيان ، وعمرو مشهوراً بالزهد والورع ، أحبه الخليفة أبو جعفر المنصور وعرض عليه الجليل من

(١) الخوارج أو الشراة هم الذين ألحوا على على (عليه السلام) فى حرب صفين ، على نهر الفرات شرقى حلب ، أن يخضع لما طلبه معاوية من وقف القتال بعد أن رفع رجاله المصاحف على رءوس الرماح ، فلما اجتمع الحكمان وغدر عمرو بن العاص بأبى موسى الأشعرى ، عاد هؤلاء الذين أرغموه أولا على الرضا بوقف الحرب والتحكيم يطلبون إليه أن يستغفر ذنبه لأنه حكم الرجال ، وتوعدوه إن لم يتب أن يخرجوا عليه ، فلما أبى حققوا ما توعدوا ، فسموا الخوارج لذلك ولأسباب أخرى ادعوها : اقرأ تاريخهم وأدبهم فى كتب الفرق والتاريخ

(٢) كالهذيلية بعد الواصلية ، وكالنظامية ، والمعمرية ، والبشرية ، والثمامية ، والجاحظية ، والخياطية ، والجبائية ، وغيرها .

الأعمال فرغب عنها زهداً ، ورثاه لما مات بأبيات تدل على عظمة المرثى ووفاء الراثى.

وكلا الرجلين ، واصل وعمرو من أبناء الموالى ، ولد الأول بمدينة رسول الله سنة ٨٠ هـ وتوفى فى مستهل الثلث الثانى من المائة الثانية ، وتوفى الثانى سنة ١٤٤هـ ، وجده رباب كان مولى لبنى تميم ، وكان لكليهما تلاميذ وأولياء مقدمون نهجوا نهجهما ، وآخرون زادوا عليهما بما درسوا من فلسفة اليونان ومنطقهم بعد ترجمة الكتب فى فجر العصر العباسى الأول ، ليفلوا الحديد بالحديد ، إذ كان قد دخل فى الإسلام أناس لم يعرفوا منه غير اسمه ، من أبناء النصارى واليهود والمجوس والدهريين ، درسوا الفلسفة والمنطق ، وأثاروا فى الإسلام جدلا حول مسائل كانت تثار فى أديانهم ، وكان هناك غيرهم ممن لم يسلموا أكثر منهم إذاعة لمقالات السوء ، وكان من الملاحدة والزنادقة الكثيرين الذين يظهرون الإسلام خوفاً واستدراراً للرزق ويبطنون الكيد له والزراية به ـ كمطيع بن إياس ، وحماد الراوية . وصالح بن عبد القدوس ، وعبد الله بن المقفع ـ من يقول بالتناسخ ويترجم كتباً فى الإلحاد ، وكان هناك الجبرية أهل التعطيل ، وأهل الحديث الذين يجدون على المعتزلة ، وينقضون أسس مذهبهم ، وكان هنالك غير هؤلاء من الحاقدين على المعتزلة والمخالفين استندوا إلى أسباب جعلوها ذرائع للطعن عليهم : كاشتغالهم بالفلسفة ، وكاحتمائهم بالخلفاء : المأمون ، والمعتصم ، والواثق ؛ وكسلكهم طريق العنف فى معاملة خصومهم ، وإذاقتهم صنوف العذاب (١)

— ٦ —

قاوم المعتزلة هؤلاء جميعاً ، وتأثروا أهل البدع فى أطراف الأرض ، وكتبوا المقالات المستفيضة ، وزانوا المجالس بالمحاضرات ، وعمروا المساجد بالمناظرات ، وصادف تحديهم الملاحدة والزنادقة هوى فى نفس المهدى وابنه موسى الهادى اللذين نكلا بالزنادقة ومن نزع إليهم ، وصادف أن حبا الخلفاء الثلاثة الذين ذكرنا أنفا المعتزلة بعطفهم ، وفسحوا لهم فى مجالسهم ، ومكنوهم من خصومهم

(١) راجع صفحات ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ من محاضرات الدولة العباسية « للخضرى بك »

فظهرت بذلك كله أول نواة من أنواء علم الكلام الذى يعتبر ثمرة من ثمار جدلهم ، وتجردوا لوضع مسائله وتوضيحها ، ثم أخذ كل فريق من المشتغلين بالنقاش فيه ينحو به منحى ميوله واعتقاده ، إلى أن أصبح ثابت البنيان ، راسخ الدعائم ، على يدى زعيم أهل السنة والجماعة أبى الحسن الأشعرى بعد أن جرد نفسه من ثوب الاعتزال كما سيجىء .

ومن أشهر علماء المعتزلة غير واصل وعمرو بن عبيد ، عثمان بن خالد الطويل أستاذ أبى الهذيل العلاف . وحفص بن سالم ، والحسن بن ذكوان ، وخالد بن صفوان ، وإبراهيم المدنى ، ومن هؤلاء من عاش فى الدولتين الأموية والعباسية ثم أبو الهذيل العلاف ، وأبو بكر الأصم ، ومعمر بن عباد ، وإبراهيم بن سيار النظام ، والجاحظ ، وأبو يعقوب الشحام ، وبشر بن المعتمر ، وثمامة بن أشرس ومعظم هؤلاء درسوا الفلسفة والمنطق فى العصر العباسى الأول ، وكان لكثير منهم تعاليم خاصة وتلاميذ وأولياء .

ومن مشهوريهم أيضاً موسى بن عمران ، وأحمد بن حائط ، وأحمد بن أيوب بن مانوس ، وعيسى بن صبيح المكنى بأبى موسى المزداد ، وأبو الحسين الخياط ، وأحمد بن أبى دؤاد القاضي ، وأبو على الجبائى شيخ الأشعرى

وقد كان المعتزلة مجدودين فى عهد خلفاء بنى العباس الأوالى إلى زمن جعفر المتوكل الذى رفع المحنة

— ٧ —

الأشاعرة :

ومن الفرق الإسلامية العظيمة التى رعت علم الكلام فى مهده وأعلت بناءه وفصلت مسائله : الأشاعرة أو أهل السنة والجماعة ، وزعيمهم وواضع مذهبهم شيخ المتكلمين وذؤابتهم غير منازع أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى المولود بالبصرة سنة ٢٦٠ هـ والمتوفى سنة ٣٢٤ هـ . وكان أول أمره تلميذاً لأبى على الجبائى من شيوخ المعتزلة المتوفى سنة ٣٠٣ هـ لأنه ختنه ، ثم خلع عن

نفسه ثوب الاعتزال بعد أن هداه البحث فى السنة ومذاهب المتكلمين إلى أن يسلك طريقاً وسطاً معقولا بين المذاهب المختلفه التى كثر فى بعضها التنطع ؛ وألف الكتب فى الرد على المعتزله الذين ينفون صفات الله ، وعلى الجهمية المعطلين وشركاء المعتزلة فى نفى الصفات ، وعلى مشبهة الذات الذين أمعنوا فى التشبيه حتى اعتقدوا العين واليد ، ومشبهة الصفات الذين أسرفوا فأثبتوا الجهة والصوت — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً — وعلى غير هؤلاء من أهل البدع والضلالات التى كانت فاشيه فى عصره ؛ ونصب له هؤلاء جميعاً ولا سيما المعتزلة — لأنه فى الأصل منهم — فقمعهم بالحجة وقطعهم بالبرهان وأخاق جدة مذهبهم فتبعه جماعة منهم ، وقرأ كتبه المحدّثون والفقهاء من أهل السنة وأخذوا بما فيها واعتبروه إماما حتى نسب مذهبهم إليه ، وتبعه سواهم ، وما زال مذهب الأشعري يغزو المذاهب الأخرى فيهزمها مذهبا إثر مذهب حتى ساد وطبق معظم الآفاق ، وعليه جمهرة المسلمين إلى هذا الوقت .

ومن أشهر رجال هذا المذهب القاضى أبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، والأستاذ أبو بكر بن فُورَك المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ، وأبو الحسن البصرى الأشعرى النعيمى الأديب المتوفى سنة ٤٢٣هـ ، وإمام الحرمين أبو المعالى المتوفى سنة ٤٧٨ هـ ، وأبو القاسم القشيرى المتكلم المتصوف السنى المتوفى سنة ٤٦٥هـ ، والشيخ عبد القاهر الجرجانى المتكلم السنى النحوى الأديب المتوفى سنة ٤٧٤ هـ ، وأبو الفتح الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ، والغزالى أبو حامد المتوفى سنة ٥٣٥ هـ ، والفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ، وقبل أولئك جميعا القفال الشاشى الكبير الأديب المتوفى سنة ٣٦٥ هـ ، راجع طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى » .

— ٨ —

علم الكلام ما هو ؟ :

هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الدينية بالأدلة العقلية ، والردّ على المبتدعة المنحرفين عن مذهب السلف وأهل السنة فى الاعتقاد[1] ، ويسمى علم التوحيد

(١) مقدمة ابن خلدون

لأن من أمهات مسائله إثبات الوحدة لله تعالى فى ذاته ، وفعله ، وخلقه الأكوان ؛ ويتضمن أيضا البحث عن وجود الله تعالى وما يجب له من صفات وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفى عنه ، وما يجب للرسل عليهم السلام من صفات ، وما يجوز أن يوصفوا به وما يجب أن ينفى عنهم ، والغرض من هذا العلم القيام بفرض يجمع عليه ، وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها ، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصديق برسله تصديقا تطمئن به النفس ، استناداً إلى الدليل على وفق ما أرشد إليه الكتاب الكريم الذى أمرنا باستخدام النظر الفاحص ، واستخدام العقل فيما بين ظهرانينا من ظواهر الكون .

وكما يسمى هذا العلم علم الكلام وعلم التوحيد ، يسمى الفقه الأكبر[1] وأصول الدين ، لأن الأصول - وهي معرفة الله تعالى بوحدانيته وصفاته ، ومعرفة الرسل بآياتهم ، ومعرفة كل مسألة يتعين فيها الحق بين المتخاصمين - موضوع علم الكلام عند المتكلمين ، وقد عده الفارابى من العلوم العملية [2] وعده ابن سينا من العلوم النظرية [3] وإنما سمى علم الكلام لأن أشهر مسألة استحر فيها الجدل بين العلماء الأوائل كانت مسألة كلام الله تعالى : أحادث هو أم قديم ؟ أو لأن مبنى هذا العلم الدليل العقلى الذى يظهر أثره فى كلام كل متكلم ، أو لأنه فى الكشف عن طرق الاستدلال على أصول الدين يشبه المنطق فى كشفه عن طرق الحجة .

(١) سماه بذلك أبو حنيفة

(٢) إحصاء العلوم للفارابى

(٣) منطق المشرقين لابن سينا . ويفرقون بين العلوم العملية والنظرية بأن الأولى لاترمى إلى حصول الاعتقاد اليقينى بالموجودات ، وإنما المقصود منها الحصول على أمر صحيح فى شأن يحدث بكسب الإنسان ليفيد منه الخير ؛ وأن الثانية ترمى إلى الاعتقاد اليقينى بحال الموجودات التى لايتعلق وجودها بفعل الإنسان ، والغرض منها حصول رأى فقط .

— ٩ —

أثر علم الكلام فى الأدب بمعنييه العام والخاص :

إذا استقرينا طبقات المتكلمين على اختلاف مذاهبهم وجدنا جمهرتهم من فحول البلاغة وأساطين الأدب وملوك الكلام ، لأن صناعتهم صناعة جدل ومحاجة ؛ قوامها قوة البيان ، وأداتها ذلاقة اللسان وإقامة البرهان ؛ ووجدنا أكثرهم بعد ترجمة الكتب فى أوائل العصر العباسى درسوا الفلسفة والمنطق ليجمعوا إلى الثقافة الإسلامية البحت ثقافة جديدة اقتضتها الضرورة ، إذ كان معظم خصوم الإسلام على نحو ما وصفنا فى عدة مواضع سابقة . ولذلك لم يكن غريباً أن نرى القاضى أبا بكر الباقلانى المتكلم السنى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ يفترض فيمن يقرأ كتابه « إعجاز القرآن » أن يكون بالأدب عارفاً وبمسائله محيطا ، فيقول : « ولسنا نزعم أنه يمكننا أن نبين مارمنا بيانه وأردنا شرحه وتفصيله لمن كان عن معرفة الأدب ذاهباً ، وعن وجه اللسان غافلا ، لأن ذلك مما لا سبيل إليه إلا أن يكون الناظر فيما نعرض عليه مما قصدنا إليه من أهل صناعة العربية قد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه ألخ »

(١) أثر المتكلمين فى الإبانة عن معنى البلاغة والأدب :

قال الجاحظ فى البيان والتبيين صفحة ٦٣ جزء أول طبع مطبعة الفتوح : « قيل لعمرو بن عبيد : ما البلاغة ؟ فقال : ما بلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ؛ وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك . قال السائل : ليس هذا أريد ! قال عمرو : من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول . قال السائل : ليس هذا أريد . قال عمرو بعد حوار : فكأنك إنما تريد تخيير اللفظ فى حسن الإفهام : قال السائل : نعم . قال عمرو : إنك إن أردت تقرير حجة الله فى عقول المتكلمين ، وتخفيف المئونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين ، بالألفاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة فى سرعة استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة

على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب ، واستوجبت على الله جزيل الثواب . وقد شرح عمرو فى هذا الجواب ما كان يعنى به المتكلمون من تحبير اللفظ وحسن إفهام ، ومن بحث طرق ذلك ، ولم تكن هذه الطرق إلا البلاغة

وكما يحدثنا الجاحظ عن شرح ابن عبيد لمعنى البلاغة ، يحدثنا فى صفحة ٧٥ وما بعدها من الجزء عينه فيقول : إن بشر بن المعتمر أحد علماء المعتزلة ، مر بإبراهيم ابن جبلة السكونى الخطيب وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليفيد أو ليكون رجلا من النظارة ، ولكن بشرا قال مخاطباً الفتيان : « اضربوا عما قال صفحاً ، واطووا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه وكان ذلك أول الكلام :

« خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، وإجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهراً ، وأشرف حسباً ، وأحسن فى الاستماع ، وأحلى فى الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع الخ »

قال الجاحظ : « قال بشر : فلما قرئت على إبراهيم قال لى : أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان » . اقرأ الصحيفة فى صفحات ٧٦،٧٥، ٧٧ من البيان ، ومنها تعرف أن بشراً كان إلى ناحيته الكلامية أديباً عارفاً أسرار البلاغة ملماً بما يجب على الأديب من تخير اللفظ ، وتقريب المعنى من الأفهام ، ومن جعل الكلام مطابقاً لمقتضى الحال ، ومن اختيار الأوقات المستحبة إلى أشباه ذلك من القواعد والأصول التى لا يدركها إلا حذاق الأدب .

ويحدثنا الجاحظ أيضاً فى صفحة ٦١ من الجزء عينه واصفاً أدب ثمامة بن أشرس المتكلم المعتزلى تعليقاً على وصف ثمامة لأدب جعفر بن يحيى البرمكى فيقول : « وهذه الصفات التى ذكرها ثمامة بن أشرس فوصف بها جعفر بن يحيى ، كان ثمامة قد انتظمها لنفسه ، واستولى عليها دون جميع أهل عصره . وما علمت أنه كان فى زمانه قروى ولا بلدى كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ـ ما كان بلغه ، وكان لفظه فى وزن

إشارته ، ومعناه فى طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك . قال بعض الكتاب : معانى ثمامة الظاهرة فى ألفاظه الواضحة فى مخارج كلامه كما وصف الحزينى شعر نفسه فى مديح أبى دلف حيث يقول :

ولى كلم ، فيك معقوله إزاء القلوب كركب وقوف ،

أما وصف ثمامة لبلاغة جعفر فقوله فى صفحة ٥٨ من الجزء عينه : « كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ؛ قد جمع الهدوء والتمهل ، والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة ، ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة ، لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة ،

هذه الكلمات الأربع التى أوردنا لعمرو بن عبيد ، وبشر بن المعتمر ، وثمامة ابن أشرس . والجاحظ ؛ تصور لك مبلغ إلمامهم بقواعد الأدب وأصوله ، وبأن البليغ عندهم كما هو عند الأصمعى « من طبّق المفصلَ وأغناك عن المفسِّر ،

(٢) آثار المتكلمين فى أصل اللغات

يحدثنا الإمام ابن تيمية المتوفى فى الربع الأول من القرن السابع فى كتابه « الإيمان » صفحة ٣٦ طبع مطبعة السعادة عن اللغات ، وهل هى توقيفية أو اصطلاحية ، فيثبت أن الكلام فى هذه المسألة أثاره المتكلمون قبل كل إنسان « وهذا القول لا نعرف أحداً من المسلمين قاله قبل أبى هاشم بن الجبائى ، ثم يقول : « فتنازع أبو الحسن الأشعرى . وأبو هاشم الجبائى فى مبدإ اللغات ، فقال أبو هاشم : هى اصطلاحية ، وقال الأشعرى : هى توقيفية ، ثم خاض الناس بعدهما فى هذه المسألة ، فقال آخرون : بعضها توقيفى وبعضها اصطلاحى ، وقال فريق رابع بالوقف ،

وهذا يدل على أن المتكلمين عالجوا الأدب من أساسه الأول ، فقد درج علماؤه على أن يتناولوا بالبحث والتمحيص مسألة اللغات ونشأتها على نحو الحوار الذى كان بين الأشعرى وابن الجبائى .

(٣) أثر المتكلمين فى علم البلاغة ؛ المتكلمون واضعو هذا العلم :

جر الكلام فى إعجاز القرآن ومعنى الإيمان والإسلام والإحسان بين المتكلمين من المعتزلة وأهل السنة وغيرهم إلى الكلام فى البلاغة ومعنى الحقيقة والمجاز وما يدلان عليه ، وتقسيم الحقيقة إلى عرفية ولغوية وشرعية ، فكان المتكلمون بذلك أول الواضعين لعلم البلاغة ، وهذا ابن تيمية يحدثنا فى كتابه الإيمان صفحة ٣٤ وما بعدها : « فصل فى أن دلالة الإيمان على الأعمال حقيقة لا مجاز » فيقول : « فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة الأولى ، ولم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا أحد من الأئمة المشهورين فى العلم : كمالك ، والثورى ، والأوزاعى ، وأبى حنيفة ، والشافعى ؛ بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو : كالخليل ، وسيبويه ، وأبى عمرو بن العلاء ونحوهم . وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه ، ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وإنما عنى بمجاز القرآن ما يُعَبَّرُ به عن الآية ، ثم يقول بعد كلام قصير : « ولم يقل ذلك أحد من أهل اللغة ولا من سلف الأمة وعلمائها وإنما هذا اصطلاح حادث ، والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين الخ »

وفى الحق أن ابن تيمية لم يلق القول على عواهنه وهو الثقة ، فإننا إذا عرضنا لواضعى هذا العلم ورافعى قواعده وجدناهم جميعاً من المتكلمين ، ومن بينهم عدد غير قليل ممن درسوا الفلسفة والمنطق ، وخلطوا مسائل البلاغة بمسائلها ؛ فالجاحظ وهو من رءوس المتكلمين قد أشار إلى مسائل من علم المعانى فى كتابه « إعجاز القرآن » ، وقدامة بن جعفر الكاتب المتوفى سنة ٣١٠ هـ وضع ثلاثة عشر نوعا من البديع فى كتابه نقد الشعر الذى سماه « نقد قدامة » ، والإمام عبد القاهر الجرجانى المتكلم السنى المتوفى سنة ٤٧٤ هـ أول من خلص مسائلها المبعثرة ووضع كتابيه « دلائل الإعجاز » ، « وأسرار البلاغة » ، وهو فى الأول متكلم فيلسوف

يسوق الكلام على طريق أهل الجدل ، وفى الثانى أميل ما يكون إلى الأدب الصرف لانصرافه عن الكلام فى الإعجاز إلى اللهجة الأدبية البحتة التى تتمثل فى سوق الشواهد الكثيرة من فصيح الشعر والنثر وبيان ما فيها من أنواع البلاغة على النحو المعروف فى دروس البلاغة الآن .

وأبو القاسم محمود الزمخشرى المتكلم المعتزلى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ألف تفسيره « الكشاف » ، وكشف فى أثناء كلامه عن كثير من قواعد البلاغة . وقال من كلام فى خطبة هذا الكتاب : « والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ ، والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطريق ، ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن : وهما علم المعانى ، وعلم البيان ، وتمهل فى ارتيادهما آونة وتعب فى التنقير عنهما أزمنة الخ » .

وأبو يعقوب السكاكى المتكلم المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ألف كتابه « مفتاح العلوم » ومزج أساليبه بكثير من أساليب الفلسفة والمنطق لتمكنه منهما .

وعن هؤلاء الأئمة الذين وضعوا علوم البلاغة ثم جردوا مسائلها ، أخذ من جاءوا بعدهم ونحوا نحوهم

(٤) أثر المتكلمين فى لغة الأدب

انسابت طائفة غير قليلة من مصطلحات المتكلمين فى محيط الأدب العربى ، قد يكون أثرى بها من جهة أنها دالة على معان مقصودة لهم لم يجدوا ما يؤديها سواها ، وقد يكون وجه الأدب أربد بها من جهة أخرى لأن معظمها دخيل على اللغة شق طريقه إليها من الفلسفة والمنطق : كالكم ، والكيف ، والأين ، والمتى ، والأزل ، والعرض ، والجوهر ، والحجة ، والبرهان ، والاعتقاد ، والحدوث ، والعدم ، والقطع ، والقمع ، والكسب ، والاختيار ، والجبر ، والتعطيل ، والشك ، واليقين ، والقضاء ، والقدر ، والعلة ، والمعلول ، والسبب ، والمسبب ، والأصول ، والفروع ، والحق ، والباطل ، والغلبة ، والخذلان ، والواجب ، والجائز ، والممكن ، والمستحيل ، والقدم ، والبقاء ، إلى أشباه ذلك مما نجده فى نثرهم ونظمهم ، كقول الجاحظ فى رسالته

« القيان » : أما بعد فإنه ليس كل صامت عن حجته مُبطلا فى اعتقاده ، ولا كل ناطق بها لا برهان له محقا فى انتحاله ، والحاكمُ العادلُ من لم يعجل بفصل القضاء دون استقصاء حجج الخصماء ، ودون أن تبلغ الحجة مداها من البيان ، ويشرك القاضى الخصمين فى بيان ما اختصما فيه حتى لا يكون بظاهر ما يقع عليه من حكمه أعلم منه بباطنه . . . وقد كنا ممسكين عن القول بحجتنا فيما تضمنه كتابنا هذا ، اقتصاراً على أن الحق متكفل بظهوره ، مُبين عن نفسه ، مستغن عن أن يستدل عليه بغيره ، إذ كان إنما يستدل بباطن على ظاهر ، وعلى الجوهر بالعرض ،

« إن الفروعَ لا محالة راجعة إلى أصولها ، والأعجاز لاحقةٌ بصدورها ، والموالىَ تبعٌ لأوليائها . وأمور العالم ممزوجة بالمشاكلة ، ومنفردة بالمضادة ، وبعضها علة لبعض : كالغيث علة السحاب ، والسحاب علة الماء والرطوبة ؛ وكالحَبّ علة الزرع والزرع علة الحب ؛ والدجاجة علتها البيضة ، والبيضة علتها الدجاجة الخ ،

وكقوله فى أول رسالته « ذم أخلاق الكتاب » بعد الديباجة :

« ومتى وقع الوصف من القائل تقصياً ، والنعت من الواصف تأنقاً ، قل شهداؤه ، وكثر خصماؤه ، لأن أغلظ المحن ما عرض على المشهور فأزاله ، وتصفحه المعقول فأحاله ، وأضعف العلل ما التمس بعد المعلول »

وكقول النظام يمدحه ـ ويدعى الجاحظ عمراً ، ويكنى بأبى عثمان :

حبى لعمرو جوهر ثابت ... وحبه لى عرض زائل
به جهاتى الست مشغولة ... وهو إلى غيرى بها مائلُ

وكقول أبى القاسم القشيرى المتكلم السنى الصوفى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ

يا من تقاصرَ شكرى عن أياديه ... وكلَّ كلُّ لسانى عن معاليه
وجُوده لم يزل فرداً بلا شَبَهٍ ... علا عن الوقت ماضيه وآتيه
لا دهر يُخلقه ، لا قهر يلحقه ... لا كشف يظهره ، لا ستر يخفيه
لا عَدَّ يجمعه ، لا ضدَّ يَمْنَعُهُ ... لاحدَّ يقطعُهُ ، لا قُطْرَ يحويه
لا كونَ يحضُرُه ، لاعينَ تبصرُهُ ... وليس فى الوهم معلوم يضاهيه
جلاله أزلى لا زوال لهُ ... وملكه دائم لا شىء يُفنيه

(٥) أثر المتكلمين فى المؤلفات العلمية :

وكذلك شاعت فى المؤلفات العلمية التى وضعها المتكلمون طائفة من ألفاظهم الاصطلاحية ، وأكثر ما كان ذلك فى مقدمات هذه الكتب : كقول الزمخشرى فى أول كتابه « الكشاف » : « فسبحان من استأثر بالأولية والقدم ، ووسم كل شىء سواه بالحدوث عن العدم ، أنشأه كتاباً ساطعاً تبيانه ، قاطعاً برهانه ، وحيا ناطقاً ببينات وحجج . قرآناً عربيا غير ذى عوج ، مفتاحا للمنافع الدينية والدنيوية ، مصداقا لما بين يديه من الكتب السماوية ، معجزا باقيا دون كل معجز على وجه كل زمان ، دائرا من بين سائر الكتب على كل لسان فى كل مكان ، أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء ، وأبكم به من تحدّى من مصاقع الخطباء . » ، وكقول الجرجانى فى مقدمة كتابه « أسرار البلاغة » ، وقد مزج كلامه مزجا صريحا باصطلاحات المناطقة والفلاسفة : « فلولا الكلام لم تكن لتتعدى فوائدُ العلم عالِمَه ، ولا صح من العاقل أن يفتق عن أزاهير العقل كمائمه ، ولتعطلت قوَى الخواطر والأفكار من معانيها ، واستوت القضية فى موجودها وفانيها ؛ نعم ، ولوَقَع الحَيُّ الحسّاسُ فى مرتبة الجماد ، ولكان الإدراك كالذى ينافيه من الأضداد ، ولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها ، والمعانى مسجونة فى مواضعها ، ولصارت القرائح عن تصرفها معقولة ، والأذهانُ عن سلطانها معزولة ، ولما عرف كفر من إيمان ، وإساءة من إحسان . » ، وكقوله وقد أمعن فى تقسيم أبواب الفن ومضى يشرح المسائل فى باب التشبيه ويسرف فى الإلمام بألفاظ أهل المنطق والفلسفة : « إن قال قائل إن تنزيل الوجود منزلة العدم أو العدم منزله الوجود ليس من حديث التشبيه فى شىء ، لأن التشبيه أن يثبت لهذا معنى من معانى ذاك ، أو حكماً من أحكامه ، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد ، وللحجة حكم النور ، فى أنك تفصل بها بين الحق والباطل كما تفصل بالنور بين الأشياء ؛ وإذا قلت فى الرجل القليل المعانى : هو معدوم ، أو هو والعدم سواء ؛ فلست تأخذ له شبها من شىء ، ولكنك تنفيه وتبطل وجوده ؛ كما أنك إذا قلت : ليس هو بشىء ، أو ليس برجل كان كذلك » .

(٦) أثر المتكلمين فى النقد :

وقد كان للمتكلمين أثر كبير ، خالد فى نقد الكلام والكشف عن محاسنه ومساوئه حين عرضوا للكلام فى إعجاز القرآن وألفوا فيه الكتب . وحين عرضوا للبلاغة ودونوها ، وإن حملت كتبهم أسماء أخرى غير النقد ؛ اقرأ للإمام أبى بكر الباقلانى فى كتابه « إعجاز القرآن » تعليقه على قول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقطِ اللِّوَى بين الدَّخول فَحَوْمل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

ترى أنه إلى إمامته الكلامية إمام فى الأدب والنقد ، يعرف كيف يميز الخبيث من الطيب ويدرك أسرار البلاغة فى الكلام إدراكا تتقطع دونه أنفاس البلغاء : قال فى صفحة ٧٥ : « الذين يتعصبون له (امرىء القيس) أو يدعون محاسن الشعر ، يقولون : هذا من البديع ، لأنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر العهد والمنزل والحبيب . وتوجع واسترجع فى بيت ، ونحو ذلك . وإنما بينا هذا لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن إن كانت ، أو غفلتنا عن مواضع الصناعة إن وجدت ؛ تأمل أرشدك الله ، وانظر هداك الله : أنت تعلم أنه ليس فى البيتين شىء قد سبقَ فى ميدانه شاعراً ، ولا تقدم به صانعاً ، وفى لفظه ومعناه خلل ، فأول ذلك أنه استوقف من يبكى لذكر الحبيب ، وذكراه لا يقتضى بكاء الخلى ؛ وإنما يصح طلب الإسعاد فى مثل هذا ، على أن يبكى لبكائه ويرقّ لصديقه فى شدة بُرحَائه ، فاما أن يبكى على حبيب صديقه وعشيق رفيقه ، فأمر محال ؛ فإن كان المطلوب وقوفه وبكاؤه أيضا عاشقا ، صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر ، لأنه من السخف ألا يغار على حبيبه ، وأن يدعو غيره إلى التغازل عليه والتواجد معه فيه . ثم فى البيتين ما لا يفيد من ذكر هذه المواضع وتسمية هذه الأماكن : من الدَّخول ، وحومل ، وتوضح ، والمقراة ، وسقط اللوى ؛ وقد كان يكفيه أن يذكر فى التعريف بعض هذا ؛ وهذا التطويل إذا لم يفد كان ضربا من العى . ثم أن قوله - لم يعف رسمها - ذكر الاصمعى من محاسنه أنه باق فنحن نحزن

على مشاهدته فلو عفا لاسترحنا ، وهذا بأن يكون من مساويه أولى ، لأنه إن كان صادق الود فلا يزيده عفاء الرسوم إلا جدة عهد وشدة وجد الخ »

وقال فى صفحة ٧٦ تعليقا على قوله :

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

إذا قامتا تضوّع المسك منهما نسيم الصبا يأتى بريّا القرنفل

« أنت لاتشك فى أن البيت الأول قليل الفائدة ليس له مع ذلك بهجة ، فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ وإن كان منزوع المعنى ؛ وأما البيت الثانى فوجه التكلف فيه قوله : تضوع المسك منهما ؛ ولو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيبا على كل حال ، فأما فى حال القيام فقط فذلك تقصير . ثم فيه خلل آخر ، لأنه بعد أن شبه عرفها بالمسك شبه ذلك بنسيم القرنفل ، وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص ؛ وقوله : نسيم الصبا . فى تقدير المنقطع عن المصراع الأول لم يصله به وصل مثله »

وقد لبس الباقلانى فى نقده ثوب الأديب الدخال ، ولم يستخدم من ألفاظ المتكلمين سوى «أنت لاتشك» مثلا ، «وأنت تعرف» ، « وهداك الله وأرشدك»

واقرأ للامام عبد القاهر الجرجانى فى كتابه « دلائل الاعجاز » ص ٢٨٣ طبع المنار تعليقه على قول أبى الطيب من قصيدته اللامية فى رثاء أخت سيف الدولة

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

تر أنه إلى إمامته فى الكلام والبلاغة إمام فى النقد ، ولا بدع ، فلولا النقد ما كانت البلاغة ؛ قال بعد كلام طويل : « واعلم أن هذا هو الصحيح فى تفسير البيت ، والطريقة المستقيمة فى الموازنة بين تأنيث الخلقة وتأنيث الاسم ، لا أن يقال إن المعنى : أن المرأة إذا كانت فى كمال الرجل من حيث العقل والفضل وسائر الخلال الممدوحة ، كانت من حيث المعنى رجلا وإن عدت فى الظاهر امرأة ؛ لأجل أنه يفسد من وجهين : أحدهما أنه قال : « ولا التذكير فخر للهلال » ومعلوم أنه لا يريد أن يقول : إن الهلال وإن ذكر فى لفظه فهو مؤنث فى المعنى ، لفساد ذلك ، ولأجل

أنه إن كان يريد أن يضرب تأنيث اسم الشمس مثلا لتأنيث المؤنثة على معنى أنها فى المعنى رجل ، وأن يثبت لها تذكيراً ، فأى معنى لأن يعود فينحى على التذكير ويغض منه ويقول : إنه ليس بفخر للهلال . هذا بين التناقض » .

(٧) ثروة المتكلمين الأدبية :

ترك المتكلمون تراثا أدبياً كريما يتمثل فى كتب البلاغة والنقد وإعجاز القرآن ، وما ألفوه فى معانيه وألفاظه ومجازه . وفى كتب الطبقات وما فيها من تاريخ أدبى تحليلى لكبار من حوتهم من الأعلام ؛ ذلك إلى الجانب العظيم الماثل فى المناظرات التى أخفتت صوت الخطابة فى الدولة العباسية ، وإلى أشعار أدبائهم التى كانت بين صور خالصة من الأدب المصفى فى أغراض شتى وصور أخرى حوت مبادئهم ومذاهبهم ؛ وقد حوت كتب التاريخ الكبيرة ، وكتب الفرق ، وموسوعات الأدب ، شيئاً كثيراً من هذا التراث الجليل ، وسنمثل بعد ببعض الصور .

(٨) أثر المتكلمين فى الألفاظ ومقدار مخلفهم بها :

اضطر المتكلمون إلى خلق ألفاظ جديدة تعبر عما فى نفوسهم من معان اقتضتها صناعة الجدل ، ففاضت أنهار مناظراتهم ومحاضراتهم بطائفة كبيرة من ألفاظ ربما أنكرها أهل اللغة أو لم يعرفوها ، أخذوها من العلوم التى درسوا كالفلسفة والمنطق وغيرهما ، فأضافوا بذلك ثروة جديدة إلى الألفاظ أحسنوا بها إلى اللغة ؛ ومهما يكن أصل هذه الألفاظ ، ومهما تكن قيمتها عند أهل اللغة ؛ فلا سبيل إلى إنكار أنها ثروة ومدد تحتاج اليه اللغة العربية ، إذ كان غناها فى الألفاظ لا يعدل غناها فى المعانى .

فأما مبلغ حفلهم فى مناظراتهم ومحاضراتهم بالألفاظ وتنميقها واختيارها ، فذلك ما تقرر أنه لم يكن يعنيهم بقدر ما تعنيهم المعانى يضعونها فى الألفاظ التى تواتيهم ، جزلت أو سهلت ، علت أو انخفضت ؛ وذلك لا يبدو غريبا من قوم كانوا يطلبون للكلام أو يطلبونه كلما عرض عارض أو اقتضى مقتض .

(٩) أثرهم فى المعانى والأساليب :

فأما أثر المتكلمين فى المعانى فيبدو واضحاً فى الغوص عليها وابتكارها ودقة الاشارة إليها ، وفى ترتيبها ترتيباً منطقياً ، وفى تقديم المقدمة بين يدى النتيجة ، وفى الفرق فى الاستنباط ، وقد صار لهم ذلك ملكة بكثرة ماجادلوا واطلعوا فى كتب الأوائل .

(١٠) نثرهم وشعرهم :

إذا وازن الأديب بين نثر المتكلمين وشعرهم تبين فرقاً بين الأول والثانى : فهم فى الأول أرسخ قدماً ، وأعز جانباً ، وأكثر تراثا ، وأغزر معنى ، وأشرف قصدا وبحسبهم أن يكون منهم إمام المنشئين وسيد المترسلين وشيخ الصناعة ، أبو عثمان بحر بن عمرو الجاحظ . وأن يكون منهم أبو الحسين ابن العميد شيخ الطريقة المعروفة باسمه فى الكتابة ؛ وهذا لا يمنع من أن لشعرائهم شعراً فى فنون مختلفة له روعة وفيه جمال .

« للبحث بقية »

محمد موسى عفيفى